أمثلة من الترجمة

Thomas Melle
Die Welt im Rücken

Rowohlt Berlin Verlag, Berlin 2016
ISBN 978-3-871-34170-0

صفحات 7-18

توماس ميله
"العالم في ظهري"

ترجمة نيفين فائق

© 2018 Littrix.de

أود أن أحدثكم عن قصة خسارة. الأمر يتعلق بمكتبتي. فهي لم تعد موجودة. لقد أضعتها.

أتى ذكر الموضوع أثناء دعوة لتناول الطعام أقيمت على شرفي، إذ يفترض أنني كنت قد حققت إنجازًا صغيرًا. كانت المشاركة في تلك الدعوة تثقل عليّ لكنني لم أرِد أن أفسد على الآخرين تلك الفرحة، التي قصدوا أن يدخلوها على نفسي. وفي العموم كانت الفعالية على كل حال موفقة.

إلى جواري جلست هنري، التي كانت في الحقيقة تحمل اسمًا أجمل بكثير. منذ فترة وأنا أشعر بضعف ما تجاهها. كنا قد صرنا نتحدث معًا بشيء من الألفة، بينما حسبت أنا أن تلك الألفة قد تكون نابعة بالأساس من طريقتها اللطيفة المتأنية، ليس من قرب فعلي. تحدثنا - كما كنا قد فعلنا من قبل كثيرًا – عن الأدب، وبدلًا من أن أظهر لها الجانب الأفضل – أي المكذوب بعض الشيء - من شخصيتي، بحت لها بأنني لم أعد أمتلك مكتبةً.

كان ذلك باعثًا بداخلي، اتبعته فحسب؛ فقد صرت منذ فترة أتعامل مع خساراتي ونواقصي بصراحة أكثر من ذي قبل، رغم أن تلك الاعترافات كانت كذلك مرهقة ومحمَّلة بالخزي. فإن عرض الكارثة الشخصية فيه شيء مزعج؛ لكن عدم البوح بها يعد أكثر زَيغًا، لاسيما عندما يكون المرء قد وصل بالفعل إلى العواقب. أدرك الخبر برترام - صاحب الدعوة - على الجهة الأخرى من الطاولة. ثم تحدثنا عن النمو الدائم ولكن البطيء للمكتبات على مدى العمر، وبوجه عام عن تراكم الأشياء والأدوات، التي تتحول لدى بعض الناس على مدار الأعوام إلى جزء غير ثانوي من هويتهم. وقد اتفقنا حول أن مثل هذه الخسارة لابد أن تكون غير محتملة. بعد ذلك تناثر الحديث، والتفت أنا مجددًا إلى هنري، التي كان لايزال يتعيَّن عليَّ أن أخبرها عن سبب اختفاء مكتبتي، لكي لا تكون ثغرة ملحوظة في حوارنا. فقلت لها إذن عرَضًا، وبصوت خفيض - مع أنني لم أكن أخفض صوتي لهذا الحد سوى نادرًا، بينما كانت هي تتحدث بصوت خفيض حتى ليكاد المرء لا يفسر كلامها، لاسيما أنها كانت تجلس عن يساري، حيث يصيب أذني الطنين - أنني مصاب بمرض الاضطراب ثنائي القطب. لكنني أظن أنها كانت تعرف ذلك. أو تعرف **شيئًا ما**. الجميع كان يعرف شيئًا ما.

في الإنجليزية يوجد تعبير "the Elephant in the Room" أي (فيل في الغرفة). وهو يعبر عن مشكلة واضحة، يتم تجاهلها. يقف إذن فيل داخل الغرفة، يستحيل غض النظر عنه، ومع ذلك لا يتحدث أحد عنه. ربما كان الفيل يشعر بالخجل، أو ربما يكون حضوره أوضح مما يستدعي التحدث عنه، وربما يظن الناس أن الفيل سوف يرحل من نفسه في وقت ما، مع أنه يكاد يعتصرهم بينه وبين الجدار. إن مرضي فيل كهذا. والخزف الذي داسه - (لكي أجعله في صورته الثانية على الفور يدك الأرض بأقدامه) - لايزال يطقطق تحت النعال. ولكن فيم أتحدث عن الخزف، بينما أنا نفسي الملقى تحته؟.

في الماضي كنت من هواة الجمع والاقتناء. ومع إدماني الثقافة، كنت قد أنشأت لنفسي على مدى عشرات السنين مكتبة هائلة، كنت أنميها وأضيف إليها على الدوام حتى أدنى تفصيلة بمنتهى الحب. كان قلبي متعلقًا بتلك الكتب، وكنت أحب جدًا، أن أعرف أن في ظهري كل هؤلاء الكتاب الذين أثروا في وأبهروني فيما مضى، وإلى جانبهم كذلك زملائي، الذين كانت إصداراتهم الجديدة تضع نصب عيني أن الزمن يتقدم، والأشياء تتغير. لم أكن قد قرأت كل الكتب، لكنني كنت بحاجة إليها كلها، كما كان بإمكاني في أي وقت أن أراجع ما أريد، وأن أضيع في أحد الكتب مرة أخرى أو أولى. كانت مجموعتي الموسيقية أيضًا لا يستهان

بها، الموسيقى المستقلة، والإلكترونية، والكلاسيكية. كانت تلك المجموعة والمكتبة قد تحولتا إلى جزء من شخصيتي أنا أيضًا. غريب كيف يُسقط الإنسان ذاته على الأشياء من حوله. لكن الأغرب هو أن يبدد تلك الأشياء، من دون أن يكون راغبًا في ذلك في الحقيقة.

في عام 2006 كنت قد بعت الجزء الأكبر من مكتبتي، لاسيما الكلاسيكيات. فجأة صارت الكتب التي كانت في السابق محببة لدي – أنا المهووس - تمثل لي عبئًا ثقيلًا، وددت التخلص منه في أسرع وقت ممكن. في عام 2007، أثناء فترة الاكتئاب، أسفت لتلك الخسارة أسفًا شديدًا. جامع المقتنيات كان قد بعثر القطع التي كان مولعًا بها في كل الاتجاهات، ولم تكن أي مبادرة لاستعادتها ممكنة. استطعت أن أصمد ثلاثة أعوام بين المقتنيات المستنزفة، ثم أصابني الهوس من جديد - كان ذلك في عام 2010 - فبعت الجزء الأكبر مما تبقى من هيكل المكتبة، بالإضافة إلى كل الاسطوانات المضغوطة والمدمجة، مما قَبِل التجار. أما ما تبقى فقد تخصلت منه، تمامًا كما فعلت بجزء لا بأس به من ملابسي. في عام 2011 أفقت مرة أخرى من نشوتي الجنونية، فأصابني الهلع، إذ كنت قد أهدرت وأضعت كل شيء، كان فيما مضى محببًا إلي.

لازلت حتى اليوم أفتقد تلك الكتب. غالبًا ما أقنع نفسي بأن فكرة تقليص المكتبة (وإن كان ذلك يظل تقليصًا في نهاية الأمر!) - حتى وإن كنت في حالة نفسية طبيعية - ربما لم يكن بالفكرة الأسوأ، أو بأنني كنت لأملَّ على أية حال من التكديس والأرشفة، لأنغمس في حالة جديدة من البساطة العاتقة؛ جدران بيضاء، وأريكة، وطاولة عليها إحدى شموع جيرهارد ريشتر، ليس أكثر. لكن مع ذلك فقد كانت تلك القرارات مرتبطة بالمرض. لم تقف وراء الأمر إرادة حرة، وإن الجدران الخالية، وصدى الصوت في مسكني يستهزئان بي اليوم ويبيّنان - وإن بدا ذلك الحكم متطرفًا - فشل إحدى محاولات الحياة.

لم تعرف هنري حقيقةً، ما الذي كان عليها أن تقول. نظرت إليَّ هازة رأسها، وأكدت لي أنها هي نفسها تعرف مثل هذه الحالات، حتى وإن كان بعيدًا عليها أن تكون قد رغبت في مقارنة حالتي النفسية وحالتها ولو من باب المقاربة. استطردنا في حديثنا عن تلك الحالات، وعن تلك المناطق الشاسعة من الضغط العالي والمنخفض في النفس، من دون أن أرغب أو أتمكن من وصف ما يعنيه المرض فعليًا بالنسبة لحياتي. لم تخرج من فمي ولا تفصيلة إضافية من تلك التفاصيل المدمرة. كان لابد أن يكون ذكر المكتبة بدايةً كافيًا. ومع ذلك فلم يكن هناك أي شيء مخجل في التحدث إليها، فقد كانت الألفة محسوسة، ولكن بنفس القدر كان تزايد المسافة الزاحفة بيننا كذلك. كان المرض - بعدما تم الإفصاح عنه الآن - يقف بيننا بشكل أوضح. ومع ذلك فلم أندم على أنني كنت قد أخبرتها. بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع كنا قد وقعنا في الحب. أما مرحلة الارتباط فلم نصل إليها. خافت هي من مرضي، وأنا من عائلتها النبيلة التقليدية، المتزمتة في كل مناحي الحياة تقريبًا، وبعد أسبوع، قضيناه كالحلم، عرفنا أنه لا مكان لنا على أرض الواقع، حتى وإن كنا قد حاولنا بصلابة على مدى بضعة شهور، رغم كل الموانع الخارجية والخاصة. منذ ذلك الحين لم أحك لها سوى تفاصيل قليلة من قصتي، رغم أنها أحد الأشخاص، الذين كان بإمكاني بل يتعيَّن عليَّ أن أحكي لهم.

إن هذا الكتاب مهدى إلى مثل هذه الاستحالات - إلى حب، تراجع على الفور.

عندما ضاجعت مادونا، شعرت بالراحة لفترة قصيرة. كانت مادونا لاتزال تحتفظ بلياقتها البدنية على نحو مذهل، وهو في الحقيقة ما لم يكد يدهشني. فقد كان بإمكان الجميع تتبع أخبارها، كيف طفرت في عام 2006 ، لتصير أيقونة للياقة البدنية، وكيف كدَّت في الفيديو الذي جاء بعنوان "Hung up"، بين تمديد الساقين والقرفصة، وحركات أصعب فأصعب، فأكثر شدَّة، كإنسان مطاطي بانحناءات جسدية ناعمة، يشكِّل جسده بعزيمة قوية، ويتحدى الزوال بركله مؤخرته المترهلة. والآن صرت أنا المستفيد من هذه المجهودات؛ الآن تمت مكافأتي أخيرًا بثمار هذا العمل الجسدي المُعَرِّق – أنا، الذي أصابني كذلك الهزال في الشهور الأخيرة على نحو ملحوظ، وكنت قد وثقت هذه العملية بدقة، من دون أن أترك أي ثغرة قدر المستطاع، في مدونة، كنت أتلفها ثم أعيد تحريرها من جديد كل يوم. كان الوقت إذن قد حان، وكان بإمكاني أن أقطف تلك الثمار من شارع أورانيَن شتراسه بمنتهى البداهة. ولماذا يكون عليَّ أن أتفاجأ؟ لقد كانت تغني لي طيلة حياتها.

كذلك كانت بيورك أيضًا. إلا أن هذه صارت في تلك الأثناء توتر أعصابي فعليًا. كانت تهرول حولي في المقاهي والحانات، تحاول أن تعيد قلبي بغنائها الساحر المدغدغ إلى صوابه. أفلم تكن هي عشقي الحقيقي في عالم البوب؟ فلماذا مادونا الآن؟ هكذا بدا لسان حالها متذمرًا. ولكن على عكس مادونا لم تثابر بيورك في الاشتغال على نفسها، لم تتجدد باستمرارا، ولم تنسلخ من جلدها. كانت بيورك تبدو واثقة من أنها بنظاراتها التي مثلت بها دور سلمى في فيلمها الأول "Dancer in the Dark"، وبِطلَّتها الفوضوية المثيرة للشفقة تستطيع أن تلهب حب صباي من دون عناء. اقتربت مني في المقاهي المعتمة بشكل اعتيادي، وأوراق شجر الخريف عالقة بشعرها، وراحت تهدل هديلًا غير مفهوم، ثم خرجت من كل ذلك خالية الوفاض. وتشبهها في ذلك كورتني.

لا أكاد أستطيع تذكر تفاصيل العلاقة الجنسية الفعلية مع مادونا. لابد أنها لم تكن شديدة الإثارة ولا شديدة الإملال. فإن مادونا في الحقيقة لم تكن متفجرة الأنوثة، وكذلك لم يكن - من حيث الذكورة - إلفيس، الذي قالت عنه إحدى عشيقاته علنًا، إنه بدا لها في السرير كطفل صغير لا حول له ولا قوة، بما في ذلك أيضًا منعكس الانقضاض على ثدي الأم. كانت مادونا على شاكلته فيما يخص حب المحارم، فقد بدا أنها كانت لاتزال ترى في صورة ابنها، يسوع المطروح أرضًا، الذي تريد أن تمارس معه الجنس الفموي: "*I'm down on my knees, I'm gonna take you there*"، هكذا فاحت من مضاجعتنا رائحة الحرام، دون أن تصيبني تلك الهرطقة ولا بأدني وخز. سريعًا تعرفت على تلك المرأة العجوز التي كانت تحتي، اللحم بالفعل أكثر طراوة وترهلًا في قبضتي، بينما سقطت جميع الأقنعة، وقد انسحبت تجاعيد العينين على الجلد عميقةً من كثرة الضحك. سقطت جميع الأقنعة، أجل: فيما عدا تلك الابتسامة المتكلفة، التي كانت قد ظهرت لي من قبل ذلك بالفعل، حيث انعكست على نافذة المكتبة. كانت مادونا تكشر عن أنيابها. كنا نطالع الكتب المعروضة، فالتقت عيوننا، لم يحتج الأمر سوى إلى التعرف عليها من ناحيتي، وابتسامة غِنجة من ناحيتها، ومن دون أي إشارات أخرى كنا قد أسرعنا إلى شقتي المخربة في منطقة كوتبوسر طور، كان الأسفلت الرطب بمثابة مرآة داكنة تحت أقدامنا. جاءت معي ببساطة. لازلت أذكر أنني تعجبت في البداية، كم كانت بارعة في اللقطات التصويرية، فيما يشبه تلك الصور العارية التي كانت تُلتقَط في أوائل الثمانينيات، ولكن

© 2018 Litrix.de

لابد أن أعترف كذلك بأن ثدييها سريعًا ما تجليا لي بصورة أوضح بكثير مما كنت أتصور، وأوضح مما تقوم وسائل الإعلام، وتقوم هي نفسها بتمويههما حرفيًا. يتعين خصم قياسين على الأقل، حينئذٍ قد تصح الأمور تقريبًا. ولكن من أكون أنا - ذلك التافه - لكي أبت في الأمر، حتى وإن كانت مادونا - إن جاز التعبير - تتداعى أمام ناظريّ؟ أو الأكثر من ذلك: من أكون أنا، لكي أخيب آمالهما؟ كنا كلانا قد انتظرنا تلك اللحظات منذ عشرات السنين. نحيت إذن أي أفكار أو أحكام أخرى جانبًا، ومنحتُها ما قررَتْ أن تحصل عليه. في الصباح التالي، كانت قد اختفت - كما تقتضي اللياقة - من دون أن تترك رقم هاتفها. هكذا هي مادونا. لم أكن أتوقع منها شيئًا على خلاف ذلك.

أما أن يأتي النجوم متسللين من كل الشقوق، فهذا أمر كنت أعرفه مسبقًا. كان الأمر ذاته دائمًا يتكرر بحذافيره. فما إن كدت أعاود الوعي بوظيفتي التي يصعب وصفها، وأبدأ في إرسال الإشارات المناسبة، إلا وكانوا يحوِّمون بي كما تحوِّم النجوم بثقبها الأسود. وكنت ألتهمهم جميعًا. قبل أن أتعثّر بمادونا، كان MCA يتجول حولي - MCA ذلك الطيب، أحد أعضاء فريق Beastie Boys، وهو ميِّت حاليًا للأسف - لكي يتفقد أخبار ما كنت أفعله في تلك الليلة المقفرة. على عكس فِرنَر هِرتسوج، المترصد في كل مكان، كان MCA روحًا نقية سليمة. أومأ لي سريعًا بأن رفع إبهامه، مشيرًا لي إلى أن كل شيء على ما يرام، وهكذا صار بإمكاني أنا ومادونا أن ننطلق بضمير خالص. فقد كان MCA هو نفسه الضمير الحي المتجسد في عالم البوب، وكل ما كان يومئ بالموافقة عليه، يكون مقبولًا سياسيًا وأدبيًا، أيًّا كان ما همس به من خلفنا الممثلون المخنثون قبالة حانة *Roses*، أو ما لمز به خلسةً أمام مطعم *Oregano* الشباب الأتراك، الذين كان يرمقون المخنثين بريبة. فليكن احتقارهم لبعضهم البعض شأنًا داخليًا ينظمونه فيما بينهم؛ فنحن لا شأن لنا بذلك. ومع ذلك، من يدري – فقد ساعدت المخنثين قبل ذلك بأسابيع، بأن وقفت حاجزًا بينهم وبين عصابات مغنيي الراب العنيفين المتحرشين، وفي النهاية عندما بدأ مع ذلك الضرب، طلبت الشرطة. أنا، والشرطة! يالها من مهزلة. لكن الأتراك فهموا سلوكي ولم يمسوا شعرة مني. فلقد نشأت معهم في نهاية الأمر. وهذا أمر مؤثر. يؤثر علي ولكن قبل كل شيء عليهم. أما المخنثون فقد قبَّلوني تعبيرًا عن شكرهم.

حين ذهبت مادونا، كانت قد ذهبت، ولم يكن شيئ قد حدث. هكذا كان الأمر عادة في معظم الأحيان: كنت أعيش مغامرة ما، تثير في مراحل ما قبل الوعي كمًّا من اللغط والفضائح - أما الآن فإن كل ضجة تذهب هباءً، سواء كان قد تم "تقييدي" بالأغلال، أو إغوائي من قِبَل مادونا. إلا أنني لم أحكِ بالطبع لأحد عن ذلك، أو ربما فعلت على الأكثر، بعدها بأسابيع، وأنا ثمل تمامًا تحت تأثير الويسكي، مجددًا على سرير خربطه شخص غريب. كانت الأحداث مكثفة، لكن بلا تسلسل. كان كل يوم بمثابة حالة تقمص روحاني، وكان لابد من أن يأتي إغراء جديد، لكي يحرر الوعي. أما ما كان بالأمس فيتم كبته مثل حرب خاسرة لم تلبث أن تنتهي قبل فترة قصيرة.

يكفي تعبير: **ثنائي القطب**. إنه أحد تلك المصطلحات، التي تطغى على المصطلحات الأخرى، لأن الأمر قد يصبح أكثر إنصافًا، إذا ما تم تجريد التسمية من عناصر التمييز فيها. محسنات لفظية مستترة، تقلم أظافر الأمر، من خلال إعادة التسمية. ففي نهاية الأمر إن مصطلح "الهوس الاكتئابي" القديم صالح بالفعل، بل إنه بلا شك أفضل بكثير في حالتي أنا. فإنني أكون مهووسًا في البداية، ثم أصير مكتئبًا: بكل بساطة. في البداية تأتي شحنة الهوس، التي قد تستمر لدى الغالبية بضعة أيام إلى بضعة أسابيع، وقد يستغرق الأمر لدى القليلين عامًا كاملًا؛ ثم تتبع ذلك الأعراض السالبة، الاكتئاب، واليأس التام، ما لم يتم إطلاقه في الفراغ بلا رحمة، وتشويهه بتحويله إلى مادة لابلورية عفنة. هذه المرحلة كذلك تختلف من مريض لآخر، فقد تستغرق أيامًا قليلة وقد تستمر مدة عامين، أو ربما أكثر. أما أنا فأنتمي إلى هؤلاء الذين سحبوا بطاقة الأعوام. فإنني حين أنزلق أو حين أحلق، يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. حينئذٍ لا يمكن توقيفي، لا عن التحليق ولا عن السقوط.

إن تعبير "ثنائي القطب"، إلى جانب ما ينطوي عليه بلا شك من آثار إيجابية، بفعل ما جلبته إعادة التسمية - وأعني تضمين أنواع مختلطة وأخف وطأة من أشكال المرض - فإنه كذلك مزود بفاعلية تقنية معينة، تخفف من وطأة المحتوى الكارثي الحقيقي للمصطلح، وتختزله فيما يتم تسجيله في الملفات الرسمية: الكارثة **مصطلحًا فنيًا** صديقًا للمستخدِم. إنه تعبير رخو لدرجة تجعل الكثيرين مازالوا لا يعرفون ما يعنيه فعليًا. أما عن الجهل فحدث ولا حرج. فإن المواطن المتعلم قد لا يعرف ما الذي يمكن أن يفهمه بالضبط من مصطلح "ثنائي القطب" - ناهيك عن الصورة الذهنية عن المرض. مثل هذه الأشياء لا تزال - وليس في ذلك اتهام لأحد - غريبة تمامًا ومزعجة للناس إلى أقصى حد. ومع ذلك فالكلام بسيط، لكن الحقائق مؤسفة. هنا يقف الطبيعيون، حتى وإن كانوا غارقين في أنواع العصاب والرهاب وأشكال الجنون الحقيقية، لكنهم جميعهم أهلٌ للمحبة، جميعهم يمكن إدماجهم بغمزة عين، بينما يقف المجانين هناك يناقرون كل لامنطقياتهم، بحيث لم يعد ممكنًا تصنيفهم بشكل مباشر، ولا تناولهم بالسخرية أو جعلهم متوافقين من خلال الفكاهة. هذا هو قدر المجانين: عدم قابليتهم للمقارنة، وفقدان أي ارتباط بحياة بقية المجتمع. المريض هو الشخص غريب الأطوار وعلى هذا لابد من تحاشيه، لأنه رمز للامنطق، وإن مثل هذه الرموز تشكل خطورةً، ليس أهونها الخطورة التي تشكلها على ذلك البناء المنطقي الهش المسمى الحياة اليومية. والمريض مثله تمامًا مثل الإرهابي، ساقط من منظومة النظام الاجتماعي العام، ساقط في هاوية عدم الفهم العدائية. وهو غير مفهوم حتى بالنسبة لنفسه، مما يزيد الأمر قسوةً. فكيف يمكنه أن يقوم بإفهام الآخرين ؟ هو لا يسعه إلا أن يتقبل عدم فهمه هو نفسه، ويحاول أن يستمر في الحياة معه. لأنه لا يوجد شيء أكثر شفافية بالنسبة له، لا حياته الداخلية، ولا العالم الخارجي. أما التفسيرات الطبية فما هي إلا نماذج لمنطق الأطباء، تريد أن تنشئ سياقًا منطقيًا، لمساعدة المريض على تجاوز صدمة الخسارة الشخصية: لقد اندلعت نار تلك الخلايا العصبية بقوة زائدة؛ وبالتالي كان هذا الضغط العصبي هدامًا. إلا أن علاقة تلك التفسيرات التعويضية بالتجربة الفعلية مع المرض أقرب إلى علاقة المنشور التوضيحي لوظائف نظام الفرامل بحقيقة التصادم المتكرر بين كرات لعبة البلياردو. يقف المرء أمام الحادث وفي يده تعليمات الاستخدام، آمِلًا أن يجد ضمن الرسومات التخطيطية الأجزاءَ المتحطمة، بينما هي موجودة فعليًا بصورة ملموسة أمامه. لكن المرء لا يجد شيئًا. فالحقائق تنسف التفسيرات. ولم يكن الحادث مخططًا له ضمن التصميم.

© 2018 Litrix.de

ربما يكون الأفضل هو أن يدع المرء - المريض النفسي - نفسه يجمد مرة واحدة وإلى الأبد، إذا ما نجا أصلًا من تلك الشحنة، ويحاول بعد ذلك أن يحيا بليدًا خاملًا، حتى النهاية، دون عظيم تأمل وإمعان في التفكير. فإن الخسارة تطال معظم الأشياء على أية حال. وإن المواجهة الإيجابية ومحاولات تحليل المرض الخاص مسألة مرهقة ومؤلمة، كما أنها خطِرة.

لقد صرت بمثابة هيكل من الشائعات والقصص. كل شخص يعرف شيئًا ما. فإذا كانوا قد أدركوا الأمر، حينئذٍ ينقلون بعض التفاصيل الحقيقية أو الخاطئة، ومن لم يكن قد سمع شيئًا، فإن الأخبار تهمس في أذنيه سرًّا. ولقد تسرب الأمر إلى كتبي على نحو غير قابل للمحو. فهي لا تدور حول شيء آخر، وتحاول مع ذلك، أن تغلف ذلك بأسلوب جدلي. لكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. لابد أن يتوقف التخييل (ويواصل التقدم بالطبع خفيةً). يتعين عليّ أن أسترد حكايتي، أن أدع الأسباب - وإن كانت عصية على التصوير، وإن لم يكن ممكنًا العثور عليها في الرسوم والتصميمات - تتجلى من خلال الوصف الدقيق للحادث.

أسباب، وأسباب، وأسباب. خذ عشرة معالِجين، فستحصل على مئات الأسباب. وعلى كل حال فإن القاعدة دائمًا وباستمرار هي ما يسمى **الهشاشة**، أي - حرفيًا - القابلية للإصابة، وإن كانت تعني بدايةً الاستعداد للإصابة بالأمراض النفسية فحسب، ولكن يمكن قراءتها أيضًا بمعنى الضعف، أو نوع من الاستجابة شديدة الحساسية، التي سريعًا ما تحول الحياة اليومية إلى عبء ثقيل. فائض من المدركات، فائض من المناظر، كما أن تصورات الآخرين تدخل في الحسبان على الدوام، بحيث يسيطر المنظور الخارجي على النظرة الداخلية. فعلى سبيل المثال إن دخول مكان عام، مسرح أو بار، والانغماس في حقل التوتر الاجتماعي المهيمن هناك، يثقل كاهل ذلك الشخص الهش إلى هذا الحد، على الفور. إن احتمالات الخطورة التي تتجلى في هذا الحقل متنوعة. ففيه تتحول الأحاديث القصيرة إلى فخ، وتبدو نظرات الحضور كالهجمات، وتشوش قصاصات الأحاديث التركيز، حتى مجرد الوقوف حول الناس في المكان يدفع بالمرء إلى الضياع الأعظم. يتعيّن على ذلك الشخص الهش أن يتغلب على نفسه مرة تلو الأخرى، إذا ما أراد ألا يختفي تمامًا في رهابه الاجتماعي الخاص. مع قلة قدرته على المقاومة، وارتباكه من العالم المحيط، يتحاشى كل ما هو اجتماعي، بل ينسى كل ما كان قد تعلمه عنه، إذا كان أصلًا قد تعلم شيئًا من ذلك يومًا ما. أو يغيّب وعيه على نحو اضطراري بالخمر وأنواع أخرى من المخدرات. وهكذا يبدأ بخربطة أدواته من الخلايا العصبية ويدعها تنقلب رويدًا رويدًا. ربما. ربما يكون ذلك سببًا، أو علّة.

لذلك تجد لعدد كبير – ستين بالمئة – من مرضى الاضطراب ثنائي القطب تاريخًا مع سوء استخدام المواد المخدرة. فهل يكون المرض هو المرتبط بسوء الاستخدام، أم أن سوء الاستخدام هو المرتبط بالمرض، أم أنه تأثير متبادل؟ ليست المعرفة بالشيء الجيد. فما أن يتم تسليط الضوء على العلل، إلا وتصير شفافة وبالية. من ناحية تعطي العلل المرء نماذج تفسيرية في يده، يمكن بمساعدتها أن يهدئ من روعه ومن روع الآخرين، حتى وإن تضمن ذلك بعض الصدمات المحتملة. ولكن من ناحية أخرى فإن المرء لا يكسب أي شيء من وراء ذلك، فكلها تبسيطات، وكلمات، وتعويذات سحرية، وبالتالي أكاذيب. فإن الطب لايزال حتى اليوم علمًا يتحسس طريقه، *trial and error* منذ قرون. ويرجع الفضل في وجود الأدوية غالبًا

لاكتشافات حدثت بالمصادفة. كما أن علم النفس مقيد بمنطق العلة والأثر. وفي النهاية لم يتم حتى شرح التثاؤب بعد.

إنه لا يسعني إلا أن أقول: هكذا وهكذا كان ما حدث لي (وهكذا أرجو ألا يحدث مرة أخرى أبدًا). أما ما هو سبب، وما هو نتيجة، وما لم يتأثر بالمرض من بين تلك الحالات، فلا يمكن تحديده على نحو قطعي. إذن عليّ أن أحكي لأجعل الأمر أقرب إلى الإدراك.

© 2018 Litrix.de